

عندما بكى الكبيسي وعندما بكى بوش... بكاء أفهمه وبكاء لا أفهمه *

نحو تفعيل حضاري للعلوم النفسانية والطب النفساني



drsattaribrahim@gmail.com

عبد الستار إبراهيم – علم النفس، مصر

<http://arabpsynet.com/Documents/DocSattarCryingIunderstand.pdf>

وكنت بالسعودية وأذكر أنني استطعت أن أوقف الدموع وأنا أرى حضارة عربية تسقط بين يوم وليلة لاحبا في صدام وأمثاله ولكن حزنا علي التي كانت تودع دورها الحضاري العريق وسقوط شعب تاه عن دوره الحضاري العظيم ليسقط ربما للأبد. وأذكر اني استلهمت ثقافتي العقلاني لأنهي هذا المقال في أقل من ساعة... وهدأت بعدها. وعثرت عليه صدفه هذا المساء (صباح الجمعة الساعة 12 بعد منتصف ليلة الخميس) وأنا أقلب صدفه بريدي الالكتروني القديم

* نشر هذا المقال إثر سقوط بغداد

تحتاج الشعوب والجماعات الإنسانية بعد مواجهة الهزائم العسكرية وفي لحظات الانهيار والإعتماد، ما يذكرها بأن الحياة لم تنته بعد، وإن الهزيمة لا يجب أن تكون هزيمة كاملة، وأن شمس الحياة ستشرق من جديد. ومن هنا يأتي دور زعماء الشعوب العظام من أهل السياسة، وأهل الفكر والفلسفة والعلم في رسم خريطة الخلاص لشعبها. ووسائل هؤلاء العظام متعددة، ولكن لعل من أهمها دور الخطب العظيمة التي تلحق بالكارثة لتفتح أمام الشعوب مسارات جديدة لتطهير الذات، ومواصلة مسيرة التقدم من جد يد. هذا ما فعلته مثلا بعض الخطب القليلة والعظيمة علي مر التاريخ بما فيها مثلا خطبة الزعيم الأسود مارتن لوثر كينج سنة 1963 في كفاحه ضد التعصب العنصري ضد السود في أمريكا:

• أري الغد، وأملك الحلم (I have a dream).

• وخطبة شارل ديغول عندما سقطت فرنسا في يد النازيين أنا فرنسا وفرنسا أنا (Je suis France et France est moi).

• وخطبة عبد الناصر في الأزهر بعد العدوان الثلاثي على مصر كتب علينا القتال ولم يكتب علينا الاستسلام سنقاتل والله أكبر الله أكبر.

• ومن التاريخ القديم خطبة مارك أنطونيو بعد اغتيال يوليوس قيصر في روما، والتي استطاع من خلالها أن يعيد توجيه الجماهير في اتجاه مختلف ليواجه ويقاوم المؤامرة الكبرى التي أودت لاغتيال يوليوس قيصر مبراطور روما بيد أعضاء مجلس شيوخها الذين كانوا من المفروض أن يحموا قانون روما لا أن يغتالوه.

لقد بدلت هذه الخطب بأفواه هؤلاء الزعماء والمفكرين من حركة التاريخ وحولت الهزيمة إلي نصر ووصحة شعبية ، لم تدم طويلا فقد كانت الكارثة أضخم وأعظم من أن تتطفيئ حريق الهزيمة.. وخطبة الدكتور أحمد الكبيسي في يوم الجمعة وهو يلقي خطبة الجمعة علي التلفزيون وكنت أسمعها للمرة الأولى في حياتي يخطب وأخبار سقوط بغداد تداخ في كل أنحاء العالم بعد سقوط العراق ستحتل موقعا مماثلا في تاريخ التراث البشري، فقد مثلت نموذجا لا يقل أثرا عما تتركه الكلمة من تعديل في طرق التفكير و تهدئة مشاعر الكآبة وأحاسيس الهزيمة واليأس. فالكلمة

استطعت أن أوقف الدموع وأنا أرى حضارة عربية تسقط بين يوم وليلة لاحبا في صدام وأمثاله ولكن حزنا علي التي كانت تودع دورها الحضاري العريق وسقوط شعب تاه عن دوره الحضاري العظيم ليسقط ربما للأبد

تحتاج الشعوب والجماعات الإنسانية بعد مواجهة الهزائم العسكرية وفي لحظات الانهيار والإعتماد، ما يذكرها بأن الحياة لم تنته بعد، وإن الهزيمة لا يجب أن تكون هزيمة كاملة، وأن شمس الحياة ستشرق من جديد

من هنا يأتي دور زعماء الشعوب العظام من أهل السياسة، وأهل الفكر والفلسفة والعلم في رسم خريطة الخلاص لشعبها

إن قيلت في الوقت المناسب ومن الشخص المناسب، وفي المكان المناسب تتحول إلي قوة دفع هائلة من شأنها أن توجهنا لتحمل أسوأ النتائج والبدء بممارسة حياتنا من جديد وبوعي أفضل، وبطاقة أكبر على العطاء وتحمل المسؤولية.

كان بعد سقوط العراق في أيدي الغزاة الأمريكيين والبريطانيين وبعد أيام من الكفاح الدامي وغير المتكافئ في البصرة وكربلاء وأم قصر لمدة أسبوعين في مواجهة أكبر قوة عاتية في التاريخ، وفي أول صلاة جمعة في 18 أبريل 2003 بمسجد أبو حنيفة ببغداد، نعم كانت خطبة الجمعة من الدكتور أحمد الكبيسي من الخطب التاريخية النادرة في تاريخ الشعوب بكل مقاييس التطهير النفسي والعلو على الكارثة، وإفساح الطريق للأمل.

وسواء اتفقنا مع البناء الإيديولوجي والعقائدي للكبيسي أو اختلفنا معه، فستظل خطبة ذلك اليوم نقطة تحول بارزة في حرب غزو العراق. إنني أذكر تماما ذلك الموقع من الخطبة التي وجه فيها الكبيسي حديثه للولايات المتحدة بهذه المعاني: لقد خاب أملنا فيكم، يا بلاد الحرية والديمقراطية، يا حضارة المخترعات والثقافة والفكر، يا وريثة ايزنهاور (لعله كان يقصد إبراهيم هام لينكلن) لقد خاب أملنا فيكم. والآن وقد حدث ما حدث، كفاكم ما فعلتموه فينا. اخرجوا من بلادنا. لقد أعدمتم تاريخنا، ودمرتم حضارتنا، وأحرقتم مكتباتنا وجامعاتنا، اخرجوا من بلادنا ودعونا نقود وطننا في محنته.

في هذه اللحظة، وفي أكثر من موقع من مواقع هذه الخطبة لم تتمالك جماهير مسجد أبو حنيفة إلا أن تقاطع الخطبة بهتاف الله أكبر، وأجهش بعضهم بالبكاء، وطفرت عيون الشيخ بالدموع. بكى وبكىنا معه. فاضت عيون الكثيرين بالدمع في لحظة كنا نحتاج فيها لهذه الارتفاعية لتقودنا إلي الأمل، ولتقلب مقاييس الهزيمة. نقطة تحول كان لها صداها في العالم كله حتى في الولايات المتحدة

بهذا البكاء تطهرت الجماهير من مسؤولية لم ترتكباها، و تحملت بشجاعة مسؤولية بناء عراق جديدة عليها أن تواجهها. تراكمت فيما يتخيل لي عليهم مشاعر الضغط النفسي الهائل خلال فترة فريدة ودامية من تاريخ الشعوب: متاحفهم التي سرقت، بنوكهم التي نهبت، آبار بترولهم التي رهنتم لعشرات السنين لدفع تكاليف حرب لم تكن لهم بل ضدهم، أشلاء أطفالهم ونسائهم في الشوارع مقطعة وملقاة بشكل مزري هنا وهناك.

كان علي العراق أن تحول الهزيمة إلي نصر نفسي، واستطاع الكبيسي أن يوجه دفة الأمور في هذا الاتجاه بدون طنطنة، وبدون عنتريات صحافتنا وأجهزتنا الإعلامية. كلمات بسيطة قوتها في بساطتها وجبروتها وفي دموع هذا الشيخ التي عكست قدرته علي التوحد بمشاعر الجماهير بنسبة ذكاء عاطفي قياسية إذا استخدمنا لغة علماء النفس وأصحاب مفهوم لذكاء العاطفي Emotional Intelligence.

في اليوم الثاني وفي التاسع عشر من إبريل على وجه التحديد من خطبة الكبيسي، كان جورج بوش يحثي بعودة الأسرى الأمريكيين السبع الذين تم تخليصهم من الأسر في العراق. والقي أيضا خطبة قصيرة بالجيش الأمريكي العائد بعد ذلك النصر العسكري المذهل (له) والمحير (لنا) في بغداد التي تحولت ما بين يوم وليلة وبقدرة قادر إلي قطعة جبن هشّة مقارنة بالأسابيع السابقة من غزو العراق. بكى بوش أيضا عندما رحب بالجنود الصغار الذين عادوا بعد تحقيق النصر.

رأيت بوش يبكي مرتين. المرة الأولى بعد أحداث 11 سبتمبر وبعد تدمير أبراج مركز التجارة العالمي، والبناتجون وكننت أفهم لماذا بكى آنذاك. أما في هذه المرة فقد انتابتي الحيرة . وكإنسان تخصصت في علم النفس وفي فهم السلوك الإنساني وعلاجه فقد احترت في تفسير السبب في بكاء بوش في الـ 19 من إبريل الحالي.

لقد بدلت هذه الخطبة بأفواه هؤلاء الزعماء والمفكرين من حركة التاريخ وحولت الهزيمة إلي نصر ووصوة شعبية

الكلمة إن قيلت في الوقت المناسب ومن الشخص المناسب، وفي المكان المناسب تتحول إلي قوة دفع هائلة من شأنها أن توجهنا لتحمل أسوأ النتائج والبدء بممارسة حياتنا من جديد وبوعي أفضل، وبطاقة أكبر على العطاء وتحمل المسؤولية

كانت خطبة الجمعة من الدكتور أحمد الكبيسي من الخطب التاريخية النادرة في تاريخ الشعوب بكل مقاييس التطهير النفسي والعلو على الكارثة، وإفساح الطريق للأمل

سواء اتفقنا مع البناء الإيديولوجي والعقائدي للكبيسي أو اختلفنا معه، فستظل خطبة ذلك اليوم نقطة تحول بارزة في حرب غزو العراق

لقد خاب أملنا فيكم، يا بلاد الحرية والديمقراطية، يا حضارة المخترعات والثقافة والفكر، يا وريثة ايزنهاور (لعله كان يقصد إبراهيم هام لينكلن) لقد خاب أملنا فيكم

الآن وقد حدث ما حدث، كفاكم ما فعلتموه فينا. اخرجوا من بلادنا. لقد أعدمتم تاريخنا، ودمرتم حضارتنا، وأحرقتم مكتباتنا وجامعاتنا، اخرجوا من بلادنا ودعونا نقود وطننا في محنته

طفرت عيون الشيخ بالدموع. بكى وبكىنا معه. فاضت عيون الكثيرين بالدمع في لحظة كنا نحتاج فيها لهذه

الهيئة الانفعالية لتفقدنا إلى
الأمل، ولتقلب مقاييس
المزيمية

بهذا البكاء تطهرت الجماهير
من مسؤولية لم ترتكبها، و
تحملت بشجاعة مسؤولية بناء
عراق جديدة عليها أن تواجهها

كان علي العراق أن تحول
المزيمية إلى نصر نفسي،
واستطاع الكبيسي أن يوجه
دفعة الأمور في هذا الاتجاه
بدون طنطنة، وبدون
مختبرات صحافتنا وأجهزتنا
الإعلامية.

أفهم لماذا بكى الكبيسي
وأفهم لماذا بكى بوش بعد
الحادي عشر من سبتمبر
ولكنني لم أفهم لماذا بكى
جورج بوش، هذه المرة:

هل كان بكاءه نتيجة إحساس
عميق بالخجل لما فعله جنده
والعصابات المحترفة التي
سرقته متاحف بغداد
ومكاتبها وتحفها النادرة
لتبيعها في السوق السوداء في
إسرائيل، وبريطانيا وأسبانيا؟

أم هو بكاء الحيرة من الشعب
الذي كان يتوقع أن يقابله
بالورد والزغاريد، ولكنه الآن
يرفع في وجهه الافتات التي
تعلن للعالم وله " أخرجوا من
بلادنا وكفناكم ما فعلتموه
فيينا؟!!!"

أفهم لماذا بكى الكبيسي وأفهم لماذا بكى بوش بعد الحادي عشر من سبتمبر ولكنني لم أفهم لماذا بكى جورج بوش،
هذه المرة:

- هل هي نشوة النصر؟
- لكننا لا نبكي عادة عندما نتصر، خاصة إن كانت قضيتنا عادلة، ونتوقع النصر لها!!
- أم هي يقظة الضمير والإحساس بالمأساة التاريخية التي ارتكبها في حق المسيرة الحضارية الإنسانية التي هزت لهمجيتها العراق وهزت ضمير العالم المتحضر وغير المتحضر؟
- أم هو إحساس ما بفشل ما أدت إليه هذه الحرب علي العراق؟
- فلا صدام أعتقل أو قتل!!
- ولا رفاهية أمريكية قد تحققت (من الغريب أن سوق الأسهم والسندات انخفض في نيويورك بشكل ملحوظ في نفس اليوم الذي دخلت فيه القوات العراقية ساحة ميدان فندق فلسطين لتعلن سقوط بغداد) !!
- وأين أسلحة الدمار الشامل التي أكدوا أنها موجودة في بغداد في مكان ما؟؟!
- هل كان بكاءه أسفا علي ما فعلته الأسلحة والدبابات الأمريكية بالأطفال والشيوخ، وبهذه المدينة العربية الجميلة!!
- أم كان أسفا علي جنده الصغار الذين قتلوا هناك، ومن لم يقتل لن يشفى نفسيا من هول المأساة؟
- هل كان بكاءه نتيجة إحساس عميق بالخجل لما فعله جنده والعصابات المحترفة التي سرقته متاحف بغداد ومكاتبها وتحفها النادرة لتبيعها في السوق السوداء في إسرائيل، وبريطانيا وأسبانيا؟
- هل كان بكاءه غضبا من مستشاريه الذين استقالوا من حوله ليلبغوه بأن ضمائرهم لا تحتمل أن يكونوا في مواقعهم، و دور أمريكا الحضاري والإنساني يدمر يوما بعد يوم؟
- أم هو بكاء الحيرة من الشعب الذي كان يتوقع أن يقابله بالورد والزغاريد، ولكنه الآن يرفع في وجهه اللافات التي تعلن للعالم وله " أخرجوا من بلادنا وكفناكم ما فعلتموه فيينا؟!!!"

الحقيقة لقد تحيرت بالفعل من بكاء جورج بوش كما لم أتحير من قبل في فهم السلوك الإنساني ودوافعه المعقدة. وكم أتمني من زملائي في الطب النفسي وعلم النفس الإنساني والسياسي أن يساهموا معي في تسليط بعض معارفهم في فهم شخصية هذا الرئيس الأمريكي الذي أرجو أن لا يكون قد جعل من بداية القرن الواحد والعشرين بداية لنهاية حزينه لما حققته البشرية من مكتسبات خلقية وحضارية على مر العصور والقرن السابقة.

21 أبريل 2003

نمو تفصيل حضاري للعلوم النفسية والطب النفسي

إيجابيات واتفاقيات ودعوة للمزيد

وبالمناسبة فقد أعجبت بالمبادرة الطيبة التي انطلقت من الزملاء الأفاضل الدكتور محمد أحمد النابلسي، والدكتور جمال التركي والدكتور خليل فاضل. وأتفق معهم في كثير مما قالوه، عما يستطيع علمنا المتواضع أن يقدمه من تضييد للمعاناة المعاصرة. وأتفق معهم في أن الكثير من جوانب الانهيار والتقدم لا يمكن فهمها جيدا

أننا لن نسمع لعلمنا أن يظل
رهين أبراجنا العاجية فلدينا
الكثير الذي يمكن أن نقدمه

أن البدء بعملية التفعيل

بدون ما تقدمه لنا دراساتنا النفسية والسلوكية والاجتماعية من مرشحات. واتفق معهم في أن علومنا قادرة أيضا أن تحيي بصيرتنا وبصيرة شعوبنا وحكامنا لتوجههم نحو تطورات أفضل.

وكم أتمنى أن تتطور دعوتهم لمزيد من التبلور والاستمرارية، فأفة حارتنا النسيان كما كان كاتبنا الكبير نجيب محفوظ يقول. ولكن ما شجعني علي أن لا تكون هذه الآفة أفتنا أنني أتابع الزملاء الثلاثة الأفاضل فيما يكتبون، وقيم ينشرون، وأشعر بأنهم قادرين على تطوير وتفعيل هذه الدعوة، ولن يسمحوا لغضبنا، وإحساسنا بالمرارة أن ينطفئ دون أن يتحول لوهج حضاري وعلمي دائم. إنني متيقن وأنا معهم أننا لن نسمح لعلمنا أن يظل رهين أبراجنا العاجية فلدينا الكثير الذي يمكن أن نقدمه لا علي المستوى العسكري فهذا أمر قد تم بخيره ومره، ولكن علي جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي يمكن لعلمنا أن يدلي فيها بدلوه.

حتى نبُلور ما يُمحِننا علمنا من علاجات وإمكانيات للتقدم والتطور

وأثق أن البدء بعملية التفعيل الحضاري للعلوم النفسية والطب النفسي يجب أن تبدأ مبكرا، ومن الآن، وقبل أن تغمرنا أجهزة الأعلام العربية ببرامجها التحليلية التافهة، وقبل أن توجهنا تحركات مسرح العرائس من الزعماء العرب لليأس والتعقيم، و فقدان الإيمان بالإنسان العربي من جديد.

كم أتمنى أن نفعَل غضبنا (وغالبيتنا غاضبون) فنبداً بأن نلتقي في مكان ما في شكل مؤتمر علمي لنرسم معا رؤيتنا منفردين أو متعاونين لتقييمنا للأحداث الدائرة والأحداث التي دارت والأحداث التي يمكن أن تدور. لكي نستخدم ما لدينا من أسلحة منهجية وفكرية لنحلل ونعالج- إن كان الأمر بيدنا- ما نراه من أسباب تقودنا للتخلف والهروب من مسئولية التقدم. لكي نبُلور وما يُمحِننا علمنا من علاجات وإمكانيات للتقدم والتطور.

ومع إيماني بدور العلوم النفسية، فإنني لا أري أن العلوم النفسية وحدها لا تستطيع أن تتفرد بالدور كله. ولهذا فإن من الضروري أن نتعاون مع زملائنا من علماء الاقتصاد والفكر والسياسة لرسم الخريطة الاستراتيجية للوضع المعاصر للحضارة العربية. إن قوتنا الحقيقية تتمثل فيما لدينا من تخصص. ونستطيع من هذا الجانب أن نوقد شمعة أو بعض الشموع، لإضاءة الطريق نحو مستقبل نكون فيه أو قد لا نكون.

الفكر والرأي قوّة فعّالة يُمْكِن أن توجه العالم

قال الأديب الراحل توفيق الحكيم عقب حرب 1967 "المفكرون ليس لهم دور في توجيه العالم مثل السياسيين لأن السياسة في يدها قوة الإرهاب والترغيب. والمفكرون ليس لديهم غير الفكر المجرد والرأي. فإذا استطاع الفكر والرأي إطلاق أشعة قوية، فإن هذه الإشعاع يمكن أن يصبح بدوره قوة فعّالة يمكن أن توجه العالم".

ولعلي أستطيع أن أضيف بأننا معشر المختصين في الطب النفسي وعلم النفس لدينا بالإضافة لسلاح الفكر سلاح المنهج العلمي، ولدينا أيضا موضوع دراستنا وهو الإنسان والسلوك الإنساني الذي يسمح لنا بالقيام بدور التوجيه السياسي والاجتماعي من أوسع الأبواب.

*** **

الحضاري للعلوم النفسية والطب النفسي يجب أن تبدأ مبكرا، ومن الآن، وقبل أن تغمرنا أجهزة الأعلام العربية ببرامجها التحليلية التافهة

كم أتمنى أن نفعَل غضبنا (وغالبيتنا غاضبون) فنبداً بأن نلتقي في مكان ما في شكل مؤتمر علمي لنرسم معا رؤيتنا منفردين أو متعاونين لتقييمنا للأحداث الدائرة والأحداث التي دارت والأحداث التي يمكن أن تدور

مع إيماني بدور العلوم النفسية، فإنني لا أري أن العلوم النفسية وحدها تستطيع أن تتفرد بالدور كله. ولهذا فإن من الضروري أن نتعاون مع زملائنا من علماء الاقتصاد والفكر والسياسة لرسم الخريطة الاستراتيجية للوضع المعاصر للحضارة العربية

إن قوتنا الحقيقية تتمثل فيما لدينا من تخصص. ونستطيع من هذا الجانب أن نوقد شمعة أو بعض الشموع، لإضاءة الطريق نحو مستقبل نكون فيه أو قد لا نكون.

أننا معشر المختصين في الطب النفسي وعلم النفس لدينا بالإضافة لسلاح الفكر العلمي المنهج

لدينا أيضا موضوع دراستنا وهو الإنسان والسلوك الإنساني الذي يسمح لنا بالقيام بدور التوجيه السياسي والاجتماعي من أوسع الأبواب

